حيدر حيدر في حوار هادئ في قريته البحرية:

أنا مسلم والقرآن كتابي وثقتي بالقانون المصري كبيرة

□ طرطوس - إيمان شاكر

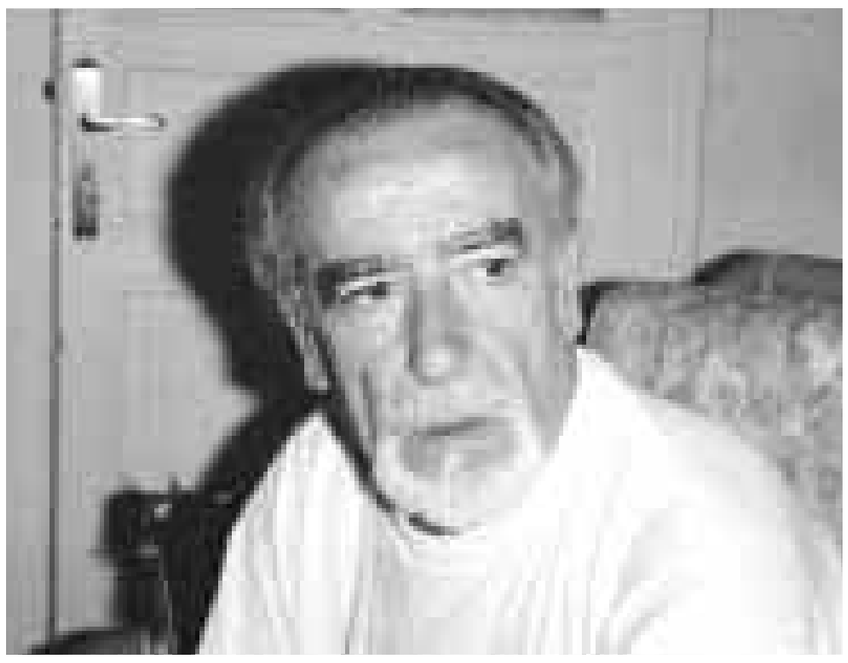

حيدر حيدر. (الحياة)

■ في حصين البحر، القرية البحرية الهادئة المتاخمة للشاطئ السوري في طرطوس كان اللقاء مع الروائي حيدر حيدر (٦٤ عاماً) الذي أثارت روايته «وليمة لأعشاب البحر» حفيظة الجهات الأصولية المصرية فالقت عليها تهماً هي منها براء تماماً. وخلال أيام أضحت قضية الروائي حيدر حيدر قضية المثقفين المصريين والعرب تبعاً للظلم الذي لحق به من جراء التحريف الذي خضعت له بضع جمل في روايته وهي كانت صدرت قبل سبعة عشر عاماً في طبعتها الأولى وقبل أشهر في طبعتها المصرية الأولى.

وإذ اعتبرت القضية سياسية أو ذات خلفية سياسية صرف، يتحدّث هنا حيدر حيدر عن روايته وتجربته عموماً مؤكداً انتماءه الاسلامي ونهجه التنويري والنقدي.

● أظنه فقدان معنى الأصالة الحقيقية في صراع يستبدل المنطق بالتهويم... هل تقول انه الزمن الرديء؟ وهل تعتقد أنك كنت مخدوعاً كما صرح مهدي جواد في روايتك التي تربعت على عرش سبعة عشر عاماً وفجأة أمسكها محمد عباس ليضعها في قفص الاتهام؟

– أقول إن الزمن رديء فعلاً لأنه ملوث بصراعات لا معنى لها إلا تحييد الصراع الحقيقي مع قضايا باتت تهدد وجودنا بكل هذا العنف أما عن كوني كنت مخدوعاً فلا أعتقد. وإلا لما جعلت مهدي جواد يصرخ بهذه الحدة وأنا أتوقع ما سيحدث من فواجع في أمة بات كيانها مهدداً بسبب تكاثر المفسدين.

● كيف ترد على محمد عباس وعلى اجتزاء العبارات من روايتك «وليمة لأعشاب البحر» وعلى تحريفها؟

– رددت في بياني «لا لمحاكم التفتيش في القرن الحادي والعشرين». وكما نوهت، هي اتهامات مزيفة ومقتطعة من سياقها، والرواية ترد في فقرات عدة أشرت اليها في الكثير من الصفحات، بل تأويل غير منطقي. أنا مسلم وأعتبر القرآن كتابي وتراثي، وعلى أقل تقدير أنا أعتز بتراث هذه الأمة وأحمل بنفسي ككاتب رسالة انهاض المضيء فيها.

● هل تظن أن الشارع العربي يميل حالياً للاستجابة لهذا النوع من التشويش والافتراءات؟

– الشارع العربي منقسم بفعل أوضاع سياسية سائدة. هناك قوة متعصبة لها صوتها ولكن لا أعتقد أن الشعب سيستجيب لها. أنا أثق الى حدّ كبير بالجماهير. الشارع العربي سبق له أن وقف مواقف إيجابية ضد التزوير والادعاء والتشويه. هذا النوع من التحريض يفترض أن الشعب قطيع ويساق ببساطة لكني أؤكد أن الشعب مدرك وواع وباستطاعته العودة الى الرواية ليعرف الحقيقة. هناك فئات وربما ليست في حجم القوى الشعبية وهي عقلانية وتقدمية ستقف معي وتحرك المثقفين وتوضح للناس المقاصد الكامنة وراء دعوة كهذه.

● دعوة الحسبة تجاوزها القضاء في مصر ولكن قد يكون هناك إجماع يشكل لجنة قضائية تستجيب لدعوى محمد عباس؟

– نحن في انتظار قرار اللجنة التي ستدرس الرواية وهي مؤلفة من السادة: جابر عصفور، أحمد هيكل، كامل زهيري، صلاح فضل، وآخر ما عرفت أن الاخوان المسلمين يحتجون عليها لأنهم يعتقدون أنها ستحكم لمصلحة الرواية ضد كاتب المقال. ولاحقاً علمت أن بياناً سيصدر عن المثقفين المصريين وآخر عن الأصولية ولا أدري ما سيسفر عن ذلك في ما بعد.

● هل تعتقد أن السلطة المصرية ستستجيب لدعوة محمد عباس؟

– لا أعتقد لأنها واجهت ذلك مراراً وخصوصاً في الآونة الأخيرة. وستترك الموضوع في مجال المثقفين. في مصر قانون. والكل يخضع له.

● ماذا تريد أن تقول لصحيفة سورية نشرت في زاوية قصية لها وفي آخر صفحة همسة عتب خجولة على استعراض تهويشي للمدعو الدكتور محمد عباس في صحيفة تشرين في الأيام الأولى للأزمة؟

– التحرك الصحافي في بداياته لأن المشكلة لم تتبلور بعد نتيجة عدم وصول ما كتبه محمد عباس. الأيام المقبلة سيكون التحرك الصحافي أكثر بروزاً فكلما توضحت الأمور وردود الأفعال في مصر تعمق التحرك الصحافي في الوطن العربي.

● ماذا عن التحركات الأخرى؟

– قيل لي أنه في دمشق حصل اجتماع للمثقفين واتفقوا على إصدار بيان ربما يكون في طريقه للتوقيع وأيضاً هناك بيانات على مستوى المحافظات تضامناً معي.

● عندما يزداد عنف الإرهاب لدى الحركات الأصولية فهو يطاول السلطات أيضاً أو أي توجه تنويري. أين المشكلة في الدفاع عن الأدب والفكر الذي يندرج في النهاية في سياق مواجهة الظلامية؟

– نحن نفترض أن هناك اختلافاً بين سلطة وأخرى. في مصر مثلاً بدأ الميل ومنذ زمن بأن تُترك أمور الدعاوى على المفكرين للمثقفين. وفي أقطار أخرى تميل الى ما يدعيه كاتب المقال على الروائي أو المفكر. أنا لا أستطيع الحكم، ولكن أعتقد أن السلطات العربية عموماً تميل للحفاظ على مواقعها والمثقفون عادة هم الذين يتحركون أكثر من السلطات.

● كيف كان موقف المثقفين في البلاد العربية حيال الدعوى على روايتك «وليمة لأعشاب البحر». وكيف كان موقف الناس الذين من حولك؟

– في مصر وفي صحف عربية عدة وإذاعات كان التعاطف واضحاً معي وظهر الاستهجان جلياً على دعوى محمد عباس واعتبروا أن الحملة ظالمة. أما في مجال من هم حولي فكان الالتفاف رائعاً، والتحرك مؤثراً وجميلاً. لأنهم يعرفونني ويعرفون مواقفي معهم وفي مجال الحياة، حتى أن هناك من انتدب نفسه لحمايتي وأنا أعتز حقيقة بهم.

● كيف خرجت من عزلتك النائية في معانقة البحر لترد على الافتراءات الموجهة ضدك؟

– أولاً أنا لست في عزلة فبيتي مفتوح للجميع وأنا في قلب الاحتكاك. وفكرة العزلة حولي اسطورة وهي فكرة رومانطيقية غير دقيقة إلا إذا أردنا أن نعتبر اعتباراً جغرافياً. اضافة الى إنني أسافر وأتابع النشاطات على مستوى العالم والوطن العربي واحضر منتديات ومؤتمرات. ثم إن وسائل الاتصال السريعة والمتطورة تجعلني ألاحق كل شيء. ولكن من جهة أخرى أنا أحب البحر والصيد والطبيعة وبيتي الهادئ يوفر لي جواً للتأمل والقراءة والكتابة. وهذا ما يتيح لي تطوير تجربتي ومتابعتها. لكن أنا لا أسكن في العاصمة. ليس لي عمل هناك ولا بيت، لذلك يقال إني أهرب من الأضواء وربما يكون في هذا شيء من الصحة. لا أرغب حقيقة في الشهرة ولا في تسليط الأضواء عليّ. أدبي هو الذي يصل الى الناس وردود أفعالهم تسعدني وتجعلني أحس بفاعليتي إضافة الى أن توسيع دائرة العلاقات لا يتناسب مع طبيعتي ويرهقني قليلاً ويجعلني أحس أنه مضيعة للوقت.

● لمَ كنت تهرب من الصحافة كما يقال؟

– لأن بعضهم مزيف. وشخصياً عانيت منهم كثيراً: قوّلوني ما لم أقله. وزيفوا على لساني الكثير. بالطبع ليسوا كلهم أقصد من هم غير أمينين لمهنتهم: أنا مع الصحافي المثقف الذي يتصف بالتنوير والعقلانية وهؤلاء التقي معهم وما بين عامي ١٩٩٩ – ٢٠٠٠ أجريت معي حوارات صحافية أكثر من كل ما أجريته في حياتي كلها. كالاردن والامارات ومصر ولبنان والكويت.

الحقيقة اني لست ميالاً الى اقامة حوارات متواصلة لأني لا أحب النجومية وطبيعتي لا تنسجم مع حب الظهور. لا أدري لما يتعبني ذلك. ولدي قناعة أن يكون الحوار حول كتاب نشرته ليوضح الكثير مما هو غامض وليطلع القارئ عليه أكثر. عندما يزداد الحوار حول كتاب يُفقده رونقه ويصبح عادياً. أحب من القارئ أن يقرأ ويأتي إليّ ليستوضح. وبتقديري أن الحوارات حول الكتب الجديدة هي الأكثر فائدة.

● هل تحدّثنا عن حالتك النفسية حيال هذه الأزمة؟

– في البداية كانت المفاجأة! فبعد سبعة عشر عاماً من نشر الرواية والحوار حولها متواصل والطبعات متتالية – في قبرص طبعت للمرة الأولى ثم طبعت في بيروت ثلاث مرات وفي سورية ثلاث مرات والآن في مصر. الحقيقة اني لم أتوقع ما حصل من إثارة ضدي في صحيفة «الشعب». لا أنكر أني اضطربت. في ما بعد حاولت التماسك واستطعت أن أرد على جميع الأسئلة والحوارات وبيان نشر في مصر في «أخبار الأدب» وفي صحف أخرى.

أعتقد إني في مواجهة معركة أدبية ثقافية وأنا قادر على مواجهتها مستنداً الى جدار المثقفين العرب في جميع الأقطار إنهم يمدونني بالدفع والثقة. لكن هناك ضغط عليّ بالاتصالات هذا ما يتعبني أحياناً. الانسان يتعب وهو بحاجة للراحة ولكن أنا مصمم ومستنفر كلياً لمواجهة الحملة التي أصبحت بالنسبة لي قضية مصيرية وخصوصاً اني مهدد بالقتل!

● يتداخل في الأدب الفكر مع الفن مع المقدرة على التحليل النفسي وخصوصاً ما لمسناه في روايتك «الوليمة». كيف تنظر الى شخص محمد عباس؟

– أنا أعتمد السرد التحليلي في أدبي وهذا في رأيي مهمة تعمق العمل. فعندما يتوغل الكاتب في أعماق شخصياته يضيف إليها بعداً آخر. العناصر النفسية والوجودية تغني التجربة في فن الكتابة. أعتقد أن هذا الشخص غير سوي لأنه يكتب بروح تحريضية. انه مصاب بالهوس الديني فيه مس أو فصام فهو يلغي العقل والمحاكمة والمنطق ويعتمد على الذب والصراخ والتهويش والشتائم. لا توجد حجة واحدة تقدم كبرهان نقدي إنه لا يحاكم عملاً أدبياً بل هو وضع في عقله قناعة واقتطع عبارة وأخرجها عن سياقها وبدأ بالتهويل والصراخ. لماذا يريد إغضاب الكرة الأرضية بكل هذه الأحقاد والضغائن ضد كاتب مسلم حر له آراؤه واجتهاداته في قضايا الانسان وهو مع الحق والعدل ومع كل إرث متنور وروحاني. كاتب يحاول أن يُنهض روح الاسلام العظيمة التي جاءت في رسالة النبي والأوائل ممن أحبوا الخير للإنسانية جمعاء. بدليل أن الشخصية التي نطقت العبارة وقد أثارت حفيظة محمد عباس المدعي أنه حامي الاسلام جاءت لتتهم المنحرفين عن أصول الدين القويم والذين يسببون كل هذا القدر من الدمار للأمة العربية. أنا ليس عندي نموذج لشخصيات لأركبها وفق مزاج محمد عباس فالكاتب ينطق لسانه كاشفاً سلبيات الواقع وايجابياته ليوصل الحق والرسالة الانسانية.

● أعتقد أن هذا النوع من الإثارة بعيد أيضاً عن الفكر العقلاني الذي يحتاج البشر إليه لفهم منطق القرآن وتفسير دلالاته العقلية!

– المسألة مسألة وجهات نظر بعضهم يكون اقتحامياً وبعضهم يخاتل والآخر يتبع طريقة المكر الروائي. لا أدري لكني أعتقد ان ليست كلّ أعمالي اقتحامية بعضها يميل الى المكر الروائي أكثر من المباشرة في تحطيم التقاليد البالية لكن الآخرين يؤولون النصوص كما حدث في جريدة «الشعب» مع محمد عباس. هذه المشكلة المستعصية بين الانسان ونفسه. أنا أعتقد أن الأديب يجب أن يكون اقتحامياً مع اني لست فعلاً مع الاستباحة وتمزيق القيم. أحاول أن أقترب من بعض العناصر التي تعيق. ولكن كل ما أكتبه من مواضيع هو مع التقدم وأنا لا أستطيع التنازل عن ذلك. وفي الوقت الذي لا أسمح لنفسي أن أمس مشاعر الناس جهراً واستفزازاً. أنا مستفز من عجزهم عن رؤية أساس هذه المشكلات.

من هنا ينفذ الظلامي دائماً ويؤول. أنا لا أنكر اني كاتب جريء وأدخل مناطق الحريق أمس التابوات ولكن ليس من أجل الاستفزاز وإنما لأرفع عنها غبار أو ركام الجهل والتخلف. وهذا ما يجعل الآخرين ينظرون إليّ نظرات الاتهام.

أنا أتميز عن بعض الكتّاب ولكن أنا لست كاتباً لا أخلاقياً ولا استفزازياً، بل أكتب من أجل التنوير وتسليط الضوء على المزيف والمعيق للعقل والحرية. المشكلة أن المجتمع متزمت لدرجة أنه يمس بالجنون ضمن تأويلاته.

● كيف تعرّف القارئ على نفسك؟

– من خلال أعمالي والعوالم التي أضعها أو عن طريق المقابلة.

تظاهرة في جامعة الازهر ضد الرواية. (أ ف ب)

عاصفة سياسية مفتعلة

جابر عصفور

■ ضجة مقلقة تلك التي أحدثتها بعض تيارات التعصب في القاهرة حول رواية الكاتب السوري حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر». وهي واحدة من الأعمال الأدبية التي لفتت انتباه نقاد الرواية العربية المعاصرة لما فيها من رؤية اجتماعية جذرية ودرجة عالية من التمرد على أوضاع التردى التي حاول الكاتب تجسيدها زمن كتابة الرواية التي نشرت للمرة الأولى سنة ١٩٨٣. ظلت الرواية تشد انتباه المثقفين الذين قرأوها، ابتداء من تاريخ نشرها الأول منذ سبعة عشر عاما إلى اليوم، واحتفى بها نقاد كبار على امتداد الوطن العربي، وصدرت منها أكثر من طبعة في أكثر من قطر عربي، جنبا إلى جنب الطبعات الكثيرة لروايات حيدر حيدر الأخرى ومجموعاته القصصية، وأذكر منها «الرفض» (١٩٧٠) و«الزمن الموحش» (١٩٧٣) و« الوعول» (١٩٧٨) و«التموجات» (١٩٨٠) و«مرايا النار» (١٩٨٢) و«الفيضان» (طبعة ثالثة١٩٨٦) و«غسق الآلهة» (١٩٩٤) و«شموس الفجر» (١٩٩٧). وكلها أعمال صنعت لصاحبها مكانته في الرواية العربية المعاصرة، ووضعته في طليعة كتابها، ولكن بقيت «وليمة لأعشاب البحر» عملا متفردا بين أعماله العديدة.

ولذلك كان من الطبيعي أن تعيد نشرها سلسلة «آفاق الكتابة» التي يشرف عليها الكاتب المصرى المعروف إبراهيم أصلان، ضمن منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر، وذلك في سياق يضع الرواية إلى جانب غيرها من الأعمال الإبداعية العربية التي تسعى هذه السلسلة إلى إعادة نشرها، وتعريف الأجيال الجديدة بها. وبالفعل، صدرت الرواية في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، بعد أن صدرت، قبلها وبعدها، أعمال يوسف الصائغ وعبدالوهاب البياتي ونازك الملائكة وعلي جعفر العلاق من العراق، ومحمد شكري ومحمد الأشعري وسالم حميش وأحمد بوزفور من المغرب، وكاتب ياسين ومالك حداد ومحمد ديب من الجزائر، ومحمود المسعدي وصلاح الدين بوجاه من تونس، والطيب صالح من السودان، وهدى بركات وحسن داود ووديع سعادة وعباس بيضون من لبنان، وسعد الله ونوس وممدوح عدوان وزكريا تامر ومحمد الماغوط من سورية، وغالب هلسا وإبراهيم نصر الله من الأردن، وعبدالرحمن منيف ونبيلة الزبير من السعودية واليمن، وغيرهم.. وغيرهم من مبدعي الأمة العربية. ونفدت الرواية من الأسواق في أيام معدودة قبل أن ينصرم العام الماضي. ولم يلتفت أحد إلى بعض الغمز الديني الذي قام به بعض صغار الصحافيين الذين وجدوا في هذا الغمز، للأسف، مصدرا للإرتزاق وجذب الانتباه. ومع ذلك لم يحدث هذا الغمز أثرا ملحوظا، وخصوصا بعد أن دافع عن الرواية كتاب بارزون منهم خيري شلبي وإبراهيم عبدالمجيد، وكلاهما كاتب رواية خبير بتقنياتها الفنية.

ولكن، فجأة، بعد أن نسي الجميع أمر الرواية، هبت عاصفة بالغة العنف من إحدى جرائد المعارضة التي ترفع رايات الدين لمصلحتها السياسية، وأخذت هذه العاصفة شكل حملة تكفير لم تشهدها الصحافة المصرية من قبل، حملة استخدمت فيها أفظع جمل التكفير الظالم، وأقسى عبارات الحض على القتل، وأقصى ما يمكن تخيله من عبارات السباب والقذف والتجريح التي يعاقب عليها القانون، وذلك في لغة تنال من كل الأطراف، ابتداء من الرواية التي وسمت بالكفر والإلحاد وإهانة الأديان، هي وكاتبها الذي انهالت عليه أقذع ألوان السباب، مرورا بالسلسلة التي نشرت الرواية مع المشرف عليها الروائي إبراهيم أصلان، والمشرف على هيئة قصور الثقافة الناقد السينمائي علي أبو شادي، وانتهاء بوزير الثقافة الذي جعل الوزارة وكر «العهر والكفر والتطبيع». ودعا كاتب المقال الاستهلالي في هذه الحملة – العاصفة القراء إلى مبايعته على الموت، انتقاما من الكاتب ومحرر السلسلة والمشرف على قصور الثقافة والوزير في وقت واحد. وعرفت الصحافة المصرية، للمرة الأولى في تاريخها المعاصر، سيلا من قبيل: «الفاجر بن الفاجر، الفاسق بن الفاسق، الكافر بن الكافر، مؤلفا وطابعا وناشرا» ومثل ذلك كثير، كما عرفت أوصافا من قبيل: «كتاب فاسق داعر وكافر نشرته هيئة لابد أن تكون فاسقة داعرة كافرة، تحت رئاسة مسؤول لا بد أن يكون داعرا فاسقا كافرا».

واتسع نطاق الحملة لتشمل خطباء لعنوا الرواية وكاتبها والمسؤولين عن نشرها من دون أن يقرأوا الرواية للأسف. وكان ذلك في موازاة دخول جماعة «الإخوان المسلمين» إلى المعركة، وإصدار بيان حاد اللهجة يتهم الرواية بالإساءة إلى الخالق – جلّ وعلا – من دون مراجعة الرواية نفسها. ودعا البيان النائب العام إلى التدخل الفوري. وتقدمت مجموعة من المنتسبين إلى جماعات التطرف ببلاغات إلى النائب العام نفسه بهدف إقامة دعاوى حسبة على كاتب الرواية والمسؤولين عن نشرها. وواصلت صحيفة «الشعب» تصعيد حملتها بالدعوة إلى عقد لقاء حزبي، حضره بضع مئات من أتباع الحزب الذين طلب منهم إعلان غضبهم، والإسهام في تكفير رواية لم يقرأوها، والحض على قتل كاتب لم يعرفوه. وتواصلت عاصفة التكفير التي لا تزال تؤججها الصحيفة نفسها، تلك التي لم تتردد في النيل من كل من حاول – أو يحاول – الدفاع عن الرواية ودفع التهم الباطلة عنها، ووصف هؤلاء المدافعين بأنهم من ذوي الأفواه «النجسة»!؟.

وتصاعدت حملات التكفير لتشمل التوجيهات الحزبية لقواعد الإخوان المسلمين في صفوف الطلاب في جامعة الأزهر التي لم ينشغل طلابها بالامتحانات بعد، وتوزيع صور المقالات التحريضية على الطلاب والطالبات لإثارة حماستهم الدينية بعبارتها التخييلية التكفيرية التي لا تخفي مغالطاتها على أي قارئ عاقل للرواية. ونجحت التوجيهات في إثارة مجموعة من الطلاب والطالبات في جامعة الأزهر، سرعان ما أثاروا غيرهم، فخرجوا في مظاهرات اصطدمت بأجهزة الأمن إلى الحد الذي تساقط معه جرحى ومصابون كثيرون من الطرفين، ولم يفت المتطرفين من الطلاب تهديد وزير الثقافة بالقتل إذا لم يستقل أو يُقَلْ على الفور. وانتهى يوم الاثنين وقوات الأمن تحاصر المدينة الجامعية للأزهر وكلياته المختلفة تحسبا لأيّ طارئ، وحل هدوء نسبي أتاح القيام بمحاولات متعددة لتهدئة الطلاب والطالبات، خصوصا بعد أن قبض على المحرضين، وبعد أن اتصل رئيس الجامعة برئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب وتشاور معهما في مواجهة الأزمة، كما تشاور مع غيرهما من المسؤولين. ومضى الليل المشحون بالتوتر، وأصبحت مدينة القاهرة وهي تتوجس قلقا من تكرار المظاهرات. وأضاف إلى هذا القلق صدور عدد جديد من أعداد جريدة «الشعب» يحمل المزيد من التحريض، والكثير من الإثارة الدينية، استعدادا لتصعيد آخر تتعدد أشكاله: حملة توقيعات تتجه إلى رئيس الجمهورية، تحريك مظاهرات أخرى، توجيه الأتباع والأنصار من الخطباء.

ولم يحدث في تاريخ مصر الحديث، منذ أن حدثت أزمة كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين سنة ١٩٢٦، أن تصاعدت حملة تكفير كتاب وكاتب إلى هذا الحد. حتى حملة تكفير نصر أبو زيد لم تأخذ هذا البعد، وظلت في دائرة المحاكم، إلى أن انتهت بالحكم الظالم الذي سعى إلى التفريق بين هذا المفكر المتميز وزوجه، ولم تخرج قضية نصر إلى أبعد من ذلك، فلم تصحبها مظاهرات طلابية في جامعة دينية، أو حملة عاصفة تهدف إلى إقالة وزارة وتهديد حكومة بأكملها. ولم تشهد قضية نصر كذلك هذا الإلحاح الذي لا نزال نشهده من التحريض المباشر على قتل الكثيرين. وذلك كله في موازاة استعراض قوة بالغ الدلالة في تحديه سلطة الدولة المدنية ومحاولة النيل من هيبتها. والمفارقة الدالة في الموقف كله أن الكتاب الذي استخدمه صانعو العاصفة لإثارة الفتنة ليس كتابا مصريا لكاتب مصري كما هو المعتاد في حملات التكفير المصرية، ولم يصدر قبل أسبوع أو أسابيع قليلة فيستفز الذين يقرأونه للمرة الأولى، وإنما هو رواية لكاتب سوري معروف في كل الأوساط الأدبية العربية، ولم تعترض دولة عربية، فيما أعلم، على روايته التي صدرت قبل سبعة عشر عاما، ونفدت طبعتها التي أصدرتها الثقافة الجماهيرية في مصر قبل ستة أشهر أو يزيد.

هذه المفارقة تثير انتباه العقل الذي لا ينساق إلى منطق الاتّباع، ويبحث وراء الظواهر عن أسبابها الحقيقية غير المعلنة، فمن غير المنطقي أن يسكت، طويلا، هؤلاء الذين يحاولون إيهام غيرهم أنهم وحدهم المدافعون عن الإسلام الذي يأمر بما لا يعرفونه من المجادلة بالتي هي أحسن. وليس من المعقول أن يترك هؤلاء فرصة إعادة نشر هذه الرواية – ذريعة الفتنة – منذ حوالى ستة أشهر، ولا يتحركون إلا بعد أن تختفي تماما من الأسواق وتمضي أشهر عدة على نفادها. ولا يتفق مع الفطنة أن يشعل هؤلاء عاصفة قد لا تبقى ولا تذر في مصر بسبب رواية صدرت قبل أكثر من سبعة عشر عاما، ولم تعترض عليها دولة عربية نشرت فيها، أو يشجبها ناقد، بل على العكس استحسنها نقاد مرموقون على رأسهم: علي الراعي ومحمود العالم وفاروق عبدالقادر ومحمد برادة وغيرهم. وليس من حسن التأتي أن يستهل عاصفة تكفير الرواية طبيب تحاليل لم ينجح أدبيا، سبق له نشر رواية بعنوان «القصر العيني» يمكن أن يجتزئ المجتزئون منها جملا ليست أقل إثارة من الجمل التي ابتسرها من رواية «وليمة لأعشاب البحر» ابتسارا، من دون مراعاة لسياق أو وجهة نظر كلية أو حتى أمانة في تقديم كل وجهات النظر التي تحتويها الرواية، وذلك بهدف قراءتها على طريقة «لا تقربوا الصلاة» من دون إكمال الآية الكريمة.

إن ظواهر الأمور في حالة تكفير «وليمة لأعشاب البحر» تنبئ عن بواطن مسكوت عنها من الدوافع التي حركت هذه العاصفة التكفيرية التي هبّت عليها، والتي دفعت صناعها إلى المسارعة بها، والاندفاع فيها أياً كان الثمن. وما يعنيني، في هذا المقال، وما أريد توضيحه وتأكيده، هو ما تنطوي عليه هذه العاصفة التكفيرية من علامات، تكشف عن دوافعها الحقيقية من ناحية، وعن سياقاتها التحتية من ناحية ثانية.

دافع سياسي

ويبرز من هذا المنظور أمران لهما دلالاتهما التي لا ينبغي إغفالها بحال. الأمر الأول هو أن الدافع الحقيقي لهذه العاصفة التكفيرية دافع سياسي بالدرجة الأولى وليس دافعا دينيا، كما أراد صانعو العاصفة إيهام الجمهور الذين سعوا إلى استفزازه دينيا، كما سعوا إلى تضليل بعض الأتقياء الذين انتزعوا لهم بعض الجمل الموهمة من سياقات الرواية، تماما كما سعوا إلى تحريك الطلاب والطالبات من المنتسبين إلى حزبهم لتحريك زملائهم وزميلاتهم، سعيا إلى الإثارة والتدمير، واستغلالا للمشاعر الدينية في تحقيق غرض سياسي حزبي غير نبيل، لا علاقة حقيقية له بالدين الذي لا يعرف سوى حسن الظن بكتابة المسلمين.

وليس من قبيل المصادفة أن هذه العاصفة بدأتها صحيفة «الشعب» بعد أيام من صدور حكم بالسجن على رئيس تحريرها واثنين من محرريها، بعد أن ثبت للقضاء المصري المشهور باستقلاله إدانتهم في ما يدخل تحت باب جرائم النشر التي تتضمن السب والقذع اللذين يعاقب عليهما القانون. وكان رئيس التحرير نقل نشاط هجومه التكفيري إلى بعض ما ترجمه المجلس الأعلى للثقافة بمناسبة المؤتمر الذي عقده في ذكرى مرور مائة عام على صدور كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة». وهو الكتاب الذي يثير القضية التي لا تزال تزعج المجموعات الأصولية المعروفة بتعصبها وتأويلاتها المعادية للمرأة. وما كاد رئيس التحرير يقوم بتنفيذ الحكم، ويترك موقعه موقتا في الجريدة الداعية إلى دولة دينية، حتى بدأت هذه الجريدة في استئناف هجومها على الطلائع الثقافية للدولة المدنية، وتصعيد المعركة وتوسيع نطاقها إلى أبعد حد. وليس أكثر إثارة من الأعمال الإبداعية في تحقيق هذه الغاية، فهي حمالة أوجه بطبيعتها، وقابلة لأكثر من تأويل في حال ثرائها الأدبي ويمكن التربص ببعض عباراتها أو جملها، واقتطاعها من السياق للتخييل بتهم الكفر والإلحاد، ومن ثم إثارة مشاعر المواطنين الأتقياء، وتحريضهم ضد الدولة المدنية التي يراد القضاء على طليعتها الثقافية، تمهيدا للقضاء على الدولة المدنية نفسها.

وتتمثل الفائدة المباشرة الأولى من إثارة عاصفة تكفيرية، حول عمل أو أعمال إبداعية، داخل هذا الإطار، في إشباع رغبة الانتقام المباشر السريع من الحكومة المدنية، والتنفيث عن الغضب المكتوم الذي غذى ردود الأفعال العصابية والعبارات العدائية والتحريضات الجنونية التي تجسّدت في الخطاب التكفيري لهذه العاصفة. وأقل أوجه هذه الفائدة الإطاحة بالمؤسسات الثقافية للدولة المدنية، وإحداث وقيعة بين الدولة ومؤسساتها الثقافية من ناحية، وبين جمهور الأمة وطلائع مثقفيه المستنيرين من ناحية ثانية. ولا معنى لتبرير خطاب العنف المجنون الذي لجأ إليه صناع هذه العاصفة إلا بإرجاعه إلى دافعه العصابي الانتقامي الذي يرى جنون الهجوم على الخصوم عين العقل في إثبات صحة الدعوى السياسية الحزبية التي تتمسح في الدين.

ويكتمل الهدف من هذه الفائدة المباشرة بإضافة أمر آخر، وهو اقتراب موعد انتخابات مجلس الشعب المصري الجديد، وخصوصا بعد أن أوشكت دورة المجلس الحالي على الانتهاء. وبدأ الاستعداد للانتخابات المقبلة، كما بدأ كل فصيل سياسي في مصر «التسخين» استعدادا للمعركة الانتخابية التي أصبحت على الأبواب. وخير وسيلة لفتح الأبواب السياسية المغلقة هي إثارة المشاعر الدينية عند شعب يغلب عليه الإيمان، ولا يقبل إهانة الأديان أو ازدراءها، ويتعاطف على الفور مع كل من يدافع عنها، ويتصدى للخارجين عليها. وتلك فرصة ذهبية، تعرفها الفصائل السياسية المتاجرة بالدين، كما تعرفها مجموعات الضغط التي تتخذ من تأويلاتها الدينية أقنعة تخفي بها حقيقة أغراضها السياسية المباشرة وغير المباشرة، فتسعى إلى كسب تعاطف المواطنين بحجة الدفاع عن دين الأغلبية. وعندما تضع هذه الطوائف نفسها موضع حامي حمى الأديان، حسب تفسيراتها المغرضة، وتضع المؤسسات الثقافية للدولة المدنية موضع المهاجم للأديان والعميل لأعدائها، حسب تأويلاتها التخييلية، فإن هذه الطوائف تأمل اكتساب استحسان الناخبين وتأييدهم، كما تأمل في تقويض قواعد الدولة المدنية ممثلة في مؤسساتها الثقافية التي تعمل على إشاعة الاستنارة، وخلخلة المجتمع المدني ممثلا في طلائع مثقفيه من المبدعين والمفكرين.

هكذا، غدت الأعمال الإبداعية والفكرية التي نشرتها المؤسسات الثقافية في مصر، ولا تزال، نقطة انطلاق للحركة الحزبية السياسية التي تستعد فصائلها لدخول الانتخابات المقبلة تحت شعارات الدين الذي يبرأ من التعصب والتطرف. وأتصور أن إثارة العاصفة التكفيرية حول رواية «وليمة لأعشاب البحر» – في هذا الظرف – هي بعض عملية «التسخين» الانتخابي التي لن تقتصر على هذه الرواية، والتي لابد أن تمتد إلى غيرها من الأعمال الإبداعية والفكرية، تلك الأعمال التي ليست مقصودة في ذاتها، وإنما من حيث هي وسيلة لتحقيق ما يجاوز الدين والإبداع والفكر إلى مصالح السياسة التي هي الهدف الأول من هذه العاصفة التكفيرية وغيرها.

ولا غرابة، إزاء هذه الانتهازية السياسية، في أن تدعو صحيفة «الشعب» المثقفين إلى مؤازرتها في مطالبة الدولة بالإفراج عن مسجونيها الثلاثة، دفاعا عن حرية الرأى، هذا في الوقت الذي تطالب فيه الصحيفة نفسها بإهدار دماء مسلمين أبرياء، لا رقيب على إيمانهم سوى خالقهم، ولا جريمة لهم سوى أنهم كتبوا أو نشروا أو ساعدوا على نشر أو أشرفوا على نشر رواية وصفها واحد (أو حتى آحاد قلائل) بالكفر، بعد أن انتزع منها بعض الجمل التي تواجهها في الرواية جمل أخرى تضبط المعنى الكلي للنص الروائي، علما بأنه في مقابل هذا الواحد (أو حتى الآحاد القلائل) هناك كثيرون من المتخصصين الذين ينفون الكفر عن هذه الرواية، ويرون فيها عملا لا يتعارض في كليته ومجمل علاقاته مع قيم الإسلام الجليلة.

ولا عجب، في الوقت نفسه، أخيرا، أن تعلن الصحيفة نفسها أنها حامية الإسلام، دون غيرها، وأنها تنذر نفسها للهجوم على من تراهم هي أعداء للإسلام، كي تصدر عليهم ما يشاء لها هواها السياسي من أحكام بالإعدام، أو أحكام بالإقالة من المناصب الرسمية والحياة الدنيوية على السواء، علما بأن الإسلام الذي تدّعيه هذه الصحيفة ترك الناس أحراراً في اختيار معتقداتهم، ودعاهم إلى الاختلاف في اجتهاداتهم، ونصحهم بالمجادلة بالتي هي أحسن، كما أمرهم بأن يتبينوا إذا جاءهم فاسق بنبأ كي لا يصيبوا قوما بجهالة. ولولا ذلك ما اعتمد فقهاء الإسلام المبدأ السمح الذي يستبدل حسن الظن بسوء الظن في كتابات المسلمين وأقوالهم، أعني المبدأ الذي يؤكد أنه: «إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر».